العدد الثالث شوال ١٤٢١ هـ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠١ م



مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بآثار الوطن العربي

اهداءات ٢٠٠٣
مؤسسة عبد الرحمن السديري
المملكة العربية السعودية



قواعد النشر

١- **يقدم البحث باللغة العربية أو الانجليزية مطبوعاً على ورقة A4 ومرفقاً به قرص مغنط مقاس ٣.٥ بوصة ويفضل أن يكون مطبوعاً على برنامج مايكروسوفت ورد ٦ أو أحدث ، ويكون متوافقاً مع أجهزة (IBM) .**

٢- **يرفق مع البحث ملخصان أحدهما باللغة العربية والآخر باللغة الإنجليزية على أن لا يزيد عدد كلمات كل منهما على ١٠٠ كلمة.**

٣- **يشترط ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد قدم للنشر في أي وعاء نشر آخر ، كما لا يجوز إعادة نشره كاملاً أو جزئياً إلا بإذن خطي من هيئة تحرير المجلة.**

٤- **يجب ألا يتجاوز حجم نص البحث خمسة آلاف كلمة، وبحيث لاتتجاوز نسبة الأشكال التوضيحية أكثر من ٣٠٪ من حجم البحث.**

٥- **ينبغي أن تكون الصور غير ملونة ومطبوعة على ورق لماع وأن تكون ذات جودة عالية ومناسبة للنشر.**

٦- **تقدم الخرائط واللوحات والأشكال على ورق شفاف (كلك) مرسومة بالحبر الصيني، وترفق التعليقات الخاصة بها في ورقة منفصلة .**

٧- **توضع إحالات المراجع المذكورة في داخل النص في نهاية الجملة بين قوسين على النحو التالي : (الجاسر ١٤١٧ : ١١)**

٨- **توضع الهوامش (التعليقات) في نهاية البحث، وتليها المراجع مرتبة ألفبائياً وبحيث تتبع الطريقة التالية في رصدها :**

أ- **الكتب** : إسم العائلة، الإسم الأول، سنة النشر، **العنوان** ، دار النشر ، مكان النشر ، (وفي حالة وجود أكثر من مؤلف فتكتب بقية الأسماء مرتبة بشكل عادي).

ب- **الكتب المحررة** : اسم العائلة ، الإسم الأول، سنة النشر، اسم المحرر، "عنوان البحث"، اسم الكتاب، صفحات المقال ، مكان النشر.

ج- **الدوريات**: إسم العائلة، الإسم الأول، سنة النشر "عنوان المقال" **اسم الدورية**، العدد، الصفحات .

د- **الرسائل العلمية**: إسم العائلة ، الإسم الأول، السنة، "عنوان الرسالة"، نوع الرسالة العلمية ، القسم ، الجامعة ، المدينة البلد.

٩- **تمنح المجلة الكاتب خمساً وعشرين مستلة من بحثه، إضافة إلى نسخة من العدد.**

١٠- **أصول البحوث والمقالات التي تصل المجلة لا ترد أو تسترجع سواء نشرت أم لم تنشر.**

١١- **يرفق مع البحث سيرة ذاتية مختصرة عن الكاتب وعنوانه الحالي.**

الاشتراكات

(عددان سنوياً شاملاً أجور البريد)

في العالم العربي :

الأفراد	٧٠	ريالاً سعودياً
المؤسسات	١٢٠	ريالاً سعودياً

خارج العالم العربي :

الأفراد	٣٠	دولاراً أمريكياً
المؤسسات	٤٠	دولاراً أمريكياً

(قسيمة الاشتراك داخل العدد).

المراسلات

مجلة أدوماتو
ص.ب ١٠٠٧١ الرياض ١١٤٣٣
المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠٣٦٧٨٠ / ٤٠٣٤٧٥١ (١) (٩٦٦+)
فاكس ٤٠٢٢٥٤٥ (١) (٩٦٦+)
بريد إلكتروني : adumatu@suhuf.net.sa
الموقع على الانترنت : www.adumatu.com

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية : ٢٠/٣٧١٩
الرقم الدولي المعياري (ردمد) : ٨٩٤٧ - ١٣١٩

مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية : أسسها الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري، أمير منطقة الجوف من ١٣٦٢/٩/٥هـ إلى ١٤١٠/٧/١هـ الموافق ١٩٤٣/٩/٤م إلى ١٩٩٠/١/٢٧م، بهدف إدارة وتمويل المكتبة العامة التي أنشأها سنة ١٣٨٣هـ ، المعروفة باسم دار الجوف للعلوم، والإسهام في حفظ التراث الأدبي والإرث الحضاري في منطقة الجوف، ودعم النهضة العلمية فيها وأعمال خيرية أخرى. وتأمل مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية أن تسهم مجلة أدوماتو في التعريف بآثار منطقة الجوف، وتسليط الضوء عليها، ضمن اهتمامها الواسع بآثار الوطن العربي.

• **صورة الغلاف** : منظر لسوق قرية الفاو.

بسم الله الرحمن الرحيم



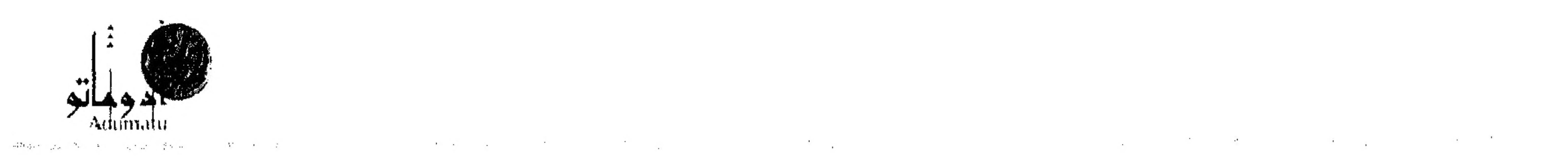
مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بآثار الوطن العربي

النـــاشـــر

مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية



الهيئة الإستشارية



المحتويات

افتتاحية العدد

ها نحن، أيها القارئ الكريم، نقدم لك العدد الثالث من مجلتك "أدوماتو"، التي جعلنا نصب أعيننا أن تضم في كل عدد باقة من الأبحاث الرصينة في مستواها، العميقة في محتواها، المنهجية في توجهها، العلمية في مبتغاها. ولا أظن إلا أننا قد وصلنا إلى هدفنا. أليس كذلك؟ إن مقياس قناعتنا بهذا، هو انتشار المجلة بين القراء، وردود الفعل والأصداء الواسعة، التي وصلنا رجعها من خلال قنوات كثيرة، لعل أهمها الإنترنت؛ فلقد تكاثر الواردون على موقعنا، لأنهم يجدون مورداً جديداً يتعطش الباحثون ، عن آثار العالم العربي إلى مثله، للارتواء بأحلى ما يمكن أن يبل ظمأ الظامئين. "والمورد العذب كثير الزحام".

******

كنا في ضحى يوم الخميس ١٦ جمادى الآخر ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٩/١٤م، في جمع من الأحباب، عندما دخل علينا أحد الزملاء وقال: "ألم تسمعوا آخر خبر؟" وكنت أظن أنه خبر له صلة بقضيتنا فلسطين، وانتفاضتها المذهلة؛ ولكنه استرسل قائلاً: "لقد مات الجاسر في الولايات المتحدة الأمريكية". فأصابنا جميعاً وجوم عميق، وأضاف قائلاً: "وسيصل جثمانه غداً الجمعة". وعلق كل واحد منا بما تيسر له من الحديث في هذا المقام. وانفض اجتماعنا .

لقد كان مشهد جنازته رهيباً، حضره أخصاؤه ومحبوه. وكم هو مشهد قاس أن تشهد علماً من الأعلام يدفن في التراب، نعم في التراب !! وسكب محبوه العبرات، ودعوا له بالرحمة والغفران، وعزى بعضهم بعضا، وتفرق الناس. أما أنا فبقيت بعض الوقت، أتفكر في هذه الدنيا! لقد كان الجاسر أباً ، لكل من يشعر أن فيه نفحة من علم له صلة بجزيرة العرب، يتقرب إليه ، ينصحه ، يساعده، يرشده، يوجهه، يشركه في أفكاره، يشيد به. واليوم يقابل ربه، بعد أن منحه الله عمراً مديداً، قارب المائة عام.

******

مما تكرر وعرف عن الشيخ حمد، أنه ولد في قرية البرود سنة ١٣٢٨ هـ فإذا كان ذلك صحيحاً ، فإنه قد دخل عقد التسعين، عمراً مديداً متعه الله فيها بالعلم والمعرفة. فجاهد قرابة نصف قرن في التعلم والتحصيل والبحث عن الرزق، بالكتابة في الصحف، ونقد الأبحاث والكتب المنشورة، وأنشأ بذلك حواراً علمياً ، بينه وبين مجموعة من العلماء؛ ثم بدأ في التأليف ، فكان أول مؤلف له هو كتاب: "الرياض عبر أطوار التاريخ" ، وذلك سنة ١٣٨٦ هـ ، الموافق ١٩٦٦م، أي إن عمره في ذلك الوقت، كان قرابة ستين عاماً. وبعد ذلك تدفق الرجل العالم سيلاً جارفاً، من الكتب المحققة والمؤلفة، عن الأماكن في الجزيرة العربية، والرحلات العلمية، في مجالات ، لعل أهمها ، التاريخ والأماكن والرجال والأدب، شعراً ونثراً، أبحاث تتحقق فيها جميعاً منهجية علمية، وذلك بعد أن كافح كفاحاً مريراً ، في سبيل إصدار مجلة تحمل اسم الرياض. وبعدها أنشأ مؤسسة اليمامة؛ ولذا يعد الرائد في تأسيس الصحافة في نجد. فأصدر "اليمامة" مجلة، ثم أصدر مجلة العرب. واكتفى من العمل الصحفي بهذه المجلة الموسوعة، عن الجزيرة العربية؛ أنساباً وتاريخاً



ومواقع وأدباً وتحقيقاً. وقد أعطى من خلالها الشئ الكثير. وقد انتقل إلى رحمة الله ، والمجلة لا زالت في ريعان شبابها، أي لا زالت تتمتع بعقد الثلاثين ربيعاً.

******

ولعل ما يذكر هنا، أنه بدأ تأليفه بكتاب عن الرياض، وختم حياته بكتاب عن البرود، قريته التي ولد فيها، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة. وفيه تحدث بشكل خاص عن نسبه ، والقبيلة التي ينتمي إليها، وهي قبيلة حرب، التي انتقل جزء منها قبل مائتي عام إلى نجد من المدينة المنورة. وقد نالت منطقة المدينة المنورة من نشاطه العلمي ، الشئ الكثير.

رحم الله أبا معن، فقد كان معيناً عذبا دفاقاً لاينضب؛ كريماً سخياً حيث كانت داره (دارة العرب) ، في حي الورود بالرياض، قبلة الفضلاء من أهل العلم، الذين يفدون إلى المملكة. فقل أن تجد ذا علم، إلا ويجعل ضمن جدول زياراته في الرياض، السلام على حمد الجاسر.

******

وبفراق حمد الجاسر لهذه الحياة الفانية، نكون قد فقدنا علماً ، كان من أوائل من جرد قلمه للدفاع عن الجزيرة العربية، ضد أفكار الدكتور كمال الصليبي في كتابه: "التوراة جاءت من جزيرة العرب" . وقد تناول الجاسر، رحمه الله، تفنيد أراء الصليبي، ودحضها من الناحيتين التاريخية والجغرافية. كما لمس الجانب اللغوي فيها أيضاً. ولم يكن الجاسر يظن أن أفكار الصليبي ، سوف تتسرب إلى ذاكرة الشباب العربي، وتصبح جزءاً من حوارات النشء الجديد في مجالسهم، وكأنهم يكتشفون شيئاً جديداً، بل وكأنهم لم يقرأوا حقائق التاريخ. فقد زارني أحد شباب الخليج قبل أيام ، وكانت كل أسئلته عن تاريخ الجزيرة العربية، وعن حقائق التوراة، كما رواها الصليبي ولوى عنقها لياً، لكي تتسق مع نظريته.

ومن خلال المناقشة، لاحظت تشرب الشاب لأفكار كمال الصليبي ، خاصة أنه قبل الزعم القائل إن سيدنا إبراهيم الخليل – عليه السلام – من منطقة ما في الجزيرة العربية، وأنه لم يكن في العراق ، ولم يمر بفلسطين، ولم يزر مصر، ولم يتزوج فيها ! بل يذكر أن مصر هي مكان ما، يقع في شمال الجزيرة العربية ، وغيرها من المزاعم المعنية بالقضية الفلسطينية، ففي تلك الندوة ، جعل المتحدثون أصل سيدنا إبراهيم – عليه السلام – من عسير، وأنه كان يغدو ويروح منها إلى مكة وبالعكس ، وهكذا بقية المنظومة الفكرية الشريرة، التي غرس بذرتها الصليبي.

******

ومما يؤسف له، أن أفكار الصليبي، لم يلتفت إليها العلماء المتخصصون في التاريخ القديم، في ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر، ذلك إن مجريات الأحداث في تلك المناطق، سواء منها ما جاء نتيجة للتنقيبات الأثرية، أو ماورد في الكتب السماوية، تسير في اتجاه لا يلتقي أبداً مع توجهات الصليبي، التي لم نكتشف بعد بواعثها. فقد كان خلواً من أي معلومات عن تاريخ الجزيرة العربية، وظهر ذلك بجلاء عندما حضر الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة

العربية، التي عقدت في رحاب جامعة الملك سعود سنة ١٩٧٩م. فقد ألقى بحثاً مجملاً عن حضارة الجزيرة العربية قبل الإسلام، فتعرض لنقد شديد من الحاضرين، خاصة من المختصين من غير العرب . فاعترف أمام الأشهاد، بجهله التام بتاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، وأنه يعد بكتابة دراسة متعمقة في موضوعه، وأسف لما حدث منه. وهذا يدل على أحد شيئين: إما أنه لم يكن يظن أن مستوى الندوة سيكون على مستوى الندوات في الغرب، ولذا استهان بالبحث، وهذا ليس من أخلاق العلماء؛ وإما أنه فعلاً، لم يكن يعي تاريخ الجزيرة، وهذا أيضاً لا يليق به كباحث يضع نفسه في مأزق مثل هذا، ومرت سنوات وإذا به يظهر علينا بهذا الكتاب، وتروج له إحدى كبريات المجلات الألمانية، ويترجم إلى عدة لغات. ألا نتوقف هنا هنيهة لنتبصر الأمر ؟؟!!!

******

وظهرت بعد ذلك كتب أخرى للمؤلف نفسه، تسير في الإتجاه نفسه. كما ظهرت كتب أخرى لغير كمال الصليبي، أحدها عنوانه "بلقيس" ، لمنى زيادة. وفيه بثت بعض أفكار الصليبي. وتلقف "سيد القمني" طريقة تفكير الصليبي، في مجموعة من الكتب ، لعل أوضح ما فيها محاولة إعادة تفسير كثير من الحقائق الدينية، وربطها بالوثنية العربية قبل الإسلام؛ مثال ذلك جعله معبود سبأ "المقه"، هو الذي تحول في ما بعد إلى كلمة "مكة" !! وفي هذا ما فيه من غمز لقناة التوحيد.

******

وثالثة الأثافي ذلك الباحث المصري، الذي يقبع في لندن، ويصدر بين الفينة والأخرى كتباً، تقدم تاريخ مصر القديم وملوكها على طبق من ذهب ، هدية إلى من يدعون أن لليهود حقاً في الحضارة المصرية. فقد جعل بعض ملوكها هم أنبياء بني إسرائيل، مما لم تأت به لا التوراة ولا القرآن الكريم، ولا صحائف التاريخ المسجلة، في مواقع تنقيبات الحضارة المصرية العريقة !! ومن عجب إن هذا الباحث، تترجم كتبه إلى اللغات الأجنبية، وتفسح له الصحف العربية صفحاتها في كل اتجاه! على الرغم من أنه تناول آثار الجزيرة العربية وتاريخها على طريقته، فأصبح يجمع أشتاتاً من هنا وهناك، فتقرأ ما يكتبه فلا تفهم ما يقول !! إن هي إلا كتابة من غير متخصص، يضر ولا ينفع.

وهكذا بدأت جوقة الظلام تخرج من جحورها لتبث سمومها ، في مرحلة ضعفت فيها اليد العربية، وفي هذا لفت لأنظار المجتمع عما هو أهم، إلى ما هو من سفاسف الأمور، ولا أدري لم لا يوجه هؤلاء، بما أوتوا به من قدرة على الجدل والحوار، نشاطهم إلى دحض أباطيل المعتقدات ، التي بنت عليها إسرائيل حقها في الاستيطان في أرضنا، وأرض إبراهيم وسليمان وغيرهما، بدلاً من إصرارهم على أن هؤلاء الأنبياء جاءوا من جزيرة العرب؟

كم كنا سنفخر لو أن هؤلاء الأنبياء جاءوا حقاً من جزيرة العرب، ولكن حقائق العلم تاريخاً وآثاراً وكتباً مقدسة، لا تعطي لهذا الاتجاه قوة وبرهاناً وتصديقاً لما يرمون إليه. فهل يمهد هذا الاتجاه لكوارث سوف تعم المنطقة، أشد مما نحن فيه ؟ تلك هي الأماني التي يدبر لها من يدبر، فهل لعلمائنا في العالم العربي أن يعيدوا النظر في التغافل ، عما يظنونه فقاقيع لابد لها أن تتلاشى ، عاجلاً أو آجلاً ؟!!!

رئيس هيئة التحرير



دراسات ما قبل التاريخ في وادي النيل (السودان ومصر): ملاحظات حول المنهج والنظرية

يوسف مختار الأمين

ملخّص: تتناول هذه الورقة تاريخ أبحاث ما قبل التاريخ في السودان ومصر، منذ بداية القرن الميلادي الماضي، من خلال استعراض نقدي للأعمال الآثارية المهمة، التي أنجزت، وذلك في محاولة لتقصي طبيعة هذه الدراسات من عدة جوانب، منها الأساليب المنهجية المتبعة، والأفكار التي شكلت الإطار النظري لها. وفي إطار التحليل النظري للتيارات الفكرية والمنهجية، التي انتظمت علم الآثار عالمياً، يحاول البحث رصد اتجاهات مماثلة لها في دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل، ومدى اتصالها بتلك التيارات. وقد اقترح الباحث ثلاث مراحل لتطور الأبحاث في هذه المنطقة، لكل واحدة منها سماتها المنهجية، ومنطلقاتها الفكرية. وقد اتضح أن هذه التوجهات المرحلية، في أبحاث ماقبل التاريخ في السودان ومصر، تقترب من التيارات المنهجية والفكرية العالمية أحياناً، وتختلف عنها أحياناً أخرى. ومن جهة أخرى،فإن سماتها الحالية لاتؤهلها بأن توصف "بالنماذج الإرشادية"، كما حددها فلاسفة العلم. كما ناقش الباحث أيضاً الصعوبات، التي تواجه الباحثين في المنطقة وإمكانية تجاوزها.

Abstract. *Surveying the most important archaeological research carried out by foreign expeditions on prehistoric Sudan and Egypt since the beginning of the last century, this paper presents a critical assessment of the methodological and theoretical orientations of that research. In doing so, the study seeks to establish trends in research on prehistoric Nile Valley and evaluate them in the light of the major intellectual developments in modern archaeology worldwide. The paper identifies three stages of development in the archaeological research in this area; each has its own methodological characteristics and ideological underpinnings. The trends so described, sometimes approximate universally recognized methodological and theoretical trends, while at others they branch off. Still these stages of developments fall short of constituting sustained paradigms. The paper also addresses the difficulties researchers may face in the area and suggests ways of overcoming them.*

تتناول هذه الورقة تاريخ البحث الآثاري، الخاص بفترة ماقبل التاريخ في وادي النيل، من بداياته الفعلية المتمثلة في المسح الميداني والتنقيب، منذ أوائل القرن الماضي، ومن خلال السرد التاريخي لهذا النشاط العلمي، يحاول الباحث رصد السمات المنهجية والفكرية، التي انتظمت الأعمال البحثية الرئيسية، التي أنجزت. والهدف الأساس من ذلك، هو النظر في تشكل المناخ الفكري، الذي جرى في إطاره وأجوائه البحوث، حيث تتحدد ملامح مستقبلها. ومن المعروف صعوبة معرفة ملامح البحث الآثاري عموماً، كغيره من العلوم الإنسانية، إلابتقصي منابع التوجهات وأصولها، التي انطوى عليها ذلك النشاط العلمي. وكما سيتضح في ثنايا هذه الورقة، فإن دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل مرت بمراحل مختلفة، يتفاوت فيها الاهتمام بهذه الفترة من التاريخ البشري في المنطقة، صعوداً وهبوطاً، وذلك لأسباب مختلفة ففي النصف الأول من القرن الماضي، كان يُنظر لوادي النيل كمنطقة بعيدة عن بؤرة التطور الثقافي في ما قبل التاريخ، ليس لها مساهمات تذكر في مجرى الأحداث الحضارية المهمة.

العدد الثالث شوال ١٤٢١هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠١م
(ص ص ٧ - ٢٨) ردمد: ٨٩٤٧ - ١٣١٩



ولم يحدث تغيير يذكر في مثل هذه الأفكار، إلا خلال المرحلة الرئيسية الثانية من تاريخ الأبحاث الآثارية في المنطقة، التي بدأت بحملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٥م). لقد كان لهذه الحملة العلمية بالغ الأثر في تاريخ البحث الآثاري عموماً في وادي النيل. فقد كشفت عن أهمية المنطقة حضارياً، وكانت نتائجها نقطة مفارقة في تاريخ البحث الآثاري في فترة العصور الحجرية، في كل من مصر والسودان. وبفضل هذه الأبحاث، صار ينظر إلى منطقة شمال شرق أفريقيا على أنها مركز إشعاع حضاري، خاصة بعد أن تسارعت وتيرة الأبحاث الميدانية المكثفة، التي قامت بها مجموعات من العلماء من مناطق مختلفة من العالم، كانت نتائجها -هي الأخرى- ذات دلالات علمية عميقة. ويعد وادي النيل (السودان ومصر) اليوم، بفضل هذه المجهودات العلمية، من أكثر أودية الأنهار في العالم حظاً في البحث والتنقيب، في آثار العصور الحجرية. ويتضح ذلك من وفرة الأدبيات المنشورة، من مجلدات وكتب وتقارير ودوريات متخصصة ووثائق مؤتمرات منتظمة، حول فترة ماقبل التاريخ. وقد أصبح من الضروري الآن البحث في طبيعة هذه الدراسات، والتدقيق في مناهجها وأطرها الفكرية. فمما لا شك فيه أن كل إنتاج أكاديمي، يعتمد على مادة امبريقية أو غيرها، لابد له من منهج لإجراء الدراسة، وكذلك فكرة أو نظرية يستهدي بها الباحث، ويفسر من خلالها الظواهر الثقافية. إن تتبع هذه المناهج والنظريات يعني ببساطة، إننا نبحث في تاريخ ذلك العلم. فما معنى تاريخ الأبحاث في مجال علم الآثار وأهميته إذن؟

أهمية تاريخ البحث الآثاري :

هناك شبه اتفاق بين علماء الإنسانيات، على ضرورة رصد تاريخ النشاط العلمي وتحليله في كل فرع من فروع العلوم الإنسانية،من منطلق أهميته في معرفة تفاصيل واقع النشاط الأكاديمي فيه.

هذا الواقع ينعكس في النظريات والمناهج، التي يتبناها الوسط العلمي، ومن ثم تتحكم في إنتاجه لفترة من الزمن. وبتتبعها يمكن تخطيط البحث المستقبلي، بطريقة تؤمن نجاحاته في الأهداف والتصورات، التي يضعها العلماء. ففي علم الآثار مثلاً، يتناول مؤرخو العلم النشاط البحثي الميداني من منظور عالمي، ويسجلون أهم الابتكارات المنهجية والنظرية، التي أدت إلى تطور العلم ،وترسيخ مبادئه الأساسية. وينظر هؤلاء إلى الأمر من عدة زوايا، مثل : رصد النظريات والأفكار، التي تميز كل مرحلة من مراحل تطور العلم وكيف ينظر العلماء إلى المادة الأثرية موضوع دراستهم، وامكانية الاستفادة منها في معرفة التاريخ الإنساني.

ويهتم العلماء بتحليل ظواهر المناخ الفكري السائد في المجتمع، عند إجراء البحث، لأنه من خلال ذلك المناخ يتشكل نموذج الدراسة من ناحية أهدافها، والمناهج المتبعة في تحقيق تلك الأهداف. فالتأويل - عادة - يخضع لقناعات واعتقادات فكرية وعملية، تتشكل في الإطار الفكري السائد في وقت إجراء البحوث. وكما يقول الفيلسوف والمؤرخ الآثاري كولنغوود، فإنه "لايمكن دراسة أي مشكلة تاريخية، دون دراسة تاريخ الأفكار التي وردت حولها ..."ويقول أيضاً : أن كل مشكلة آثارية تنبع من واقع حياتي .. وأننا ندرس التاريخ من أجل أن نرى بوضوح الموقف، الذي نتصرف فيه الآن " [1] (Trigger 1989 : 2). فإذا ألقيت نظرة سريعة على تاريخ علم الآثار الحديث تتضح مباشرة العلاقة بينه، كممارسة أكاديمية، وبين الأيدولوجيا والسلطة السائدة في المجتمع، الذي تنتج فيه المعرفة الآثارية.

وبما أن الهدف الأساسي لعلم الآثار كان - ومايزال- كتابة تاريخ الثقافة الإنسانية، وتفسير عمليات التطور والتغير فيه، فمن البدهي أن تستغل تلك المعرفة بتفاصيل التاريخ الثقافي في تحقيق بعض الأهداف الآنية للمجتمعات. ويكون استغلال هذه المعرفة لخدمة أغراض متعددة، يمكن تلخيصها في دورين : أحدهما إيجابي لمصلحة العامة، والآخر



لمصلحة فئات محدودة في المجتمع. فعلم الآثار يؤسس، مع تخصصات أخرى المعرفة الخاصة بتاريخ الهويات الثقافية ، وهي عادة ماتكون نقطة الانطلاق في تكوين الشرعية، التي تقوم عليها الأمة والسلطة ، التي تدير شؤونها. واستعادة الماضي، أي التاريخ الثقافي، والاستعانة به في تشكيل الحاضر، يتوقف بالدرجة الأولى على الأيدولوجيا السائدة، وعلى قدرة القوى الاجتماعية التي تتبناها. وعلى سبيل المثال ، يمكن أن نذكر مافعله الآثاريون في إسرائيل ، من إنتاج معرفة تؤكد - في نظرهم- أحقية المستوطنين اليهود في أرض الميعاد ، وإحياء العصبية اليهودية، ومن ثم إثبات الهوية الثقافية ، كما وردت في القصص التوراتي. وتمثل مواقع الآثار الكبيرة بالنسبة لهم قوة رمزية ساعدت في التوحد لتأسيس الدولة الوطنية، وأصبحت جزءاً مهماً في الفضاء الاجتماعي والسياسي والفكري الإسرائيلي. كذلك استفادت الأقليات ، من السكان المحليين في أمريكا واستراليا، من المعرفة الآثارية، للمطالبة بحقوقها التاريخية والثقافية ، واستعادة أمجادها القديمة.

وفي مناقشته للهوية الوطنية المصرية، لاحظ فكري حسن رسوخ التراث العربي الإسلامي. وما وفد من أوروبا حديثاً، في أذهان الناس، مما يشكل قطيعة بين الحاضر والماضي القديم ، المتمثل في الحضارة الفرعونية، على الرغم من أن الأخير يظل ورقة سياسية مهمة. وقد كان التاريخ الفرعوني مصدر قوة واعتزاز لدى المصريين، أيام مقاومة الاستعمار، ويظهر ذلك في خطب السياسيين ، وما كتبه مثقفو الطبقة الوسطى عن الهوية المصرية. وقد استدعى قادة ثورة ١٩١٩م هذا التاريخ، ومجدوا ماضي الأمة، التي كانوا يدعونها للنهضة. وقد كتب عدد من مشاهير الأدباء أعمالاً روائية مهمة، تستمد رموزها من ذلك التاريخ القديم، ولم يتراجع ذلك الاهتمام، إلا بعد نمو التيار القومي الحديث في الخمسينات من القرن الماضي (Hassan 1998a: 207) .

هذه أمثلة محدودة ، لعلاقة علم الآثار بالتيارات السياسية والفكرية في المجتمعات المعاصرة. إن البحث في تاريخ النشاط الآثاري في أي بلد ، لابد أن يكشف شيئاً عن مثل تلك العلاقة ، أو غيرها. ووفقاً لهذا الاتجاه، يبرز على السطح سؤال يتعلق بطبيعة المراحل، التي مرَّ بها علم الآثار، من ناحية مناهجه والأفكار، التي تؤطر أهدافه. فعلى سبيل المثال : هل هناك من رابط بين مناهج البحث الآثاري المطبقة ونظرياته ، على المستوى العالمي ؟ وهل يتخذ علم الآثار مرجعيته النظرية والمنهجية من العلوم الطبيعية والإنسانية الأخرى ، في كل مرة يظهر فيها تحول أو نقلة في تلك المعارف ، أم يبنى ذلك تدريجياً وبصفة تراكمية ؟ إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تحيل إلى النظر في كتابات المتخصصين في تاريخ علم الآثار، الذين حاولوا رصد التيارات المنهجية المتعاقبة في العالم ، خاصة أوروبا وأمريكا على مدى مئتي سنة من العمل الآثاري [٢] .

وقد تأثر الباحثون في تاريخ علم الآثار بآراء فلاسفة العلوم ، الذين طرقوا -منذ أوائل القرن الماضي - موضوع ميكانزمات "آليات" حركة إنتاج المعرفة العلمية ، وأشكال وصيغ التقدم في العلوم . وقد ظهرت تيارات نظرية متنوعة، حول دراسة تطور العلم في إطاره التاريخي ، والثقافي والاجتماعي، يربط بينها فكرة التطور العلمي عن طريق تراكم التجارب . وانتقل هذا المفهوم إلى العلوم الاجتماعية، ومن بينها علم الآثار ، الذي تعود دارسو تاريخه على تفضيل فكرة التطور التدريجي واقتباس المناهج والنظريات، من مختلف ضروب المعرفة خلال مراحل تطورها المختلفة، ولم يهتم علماء الآثار، في واقع الأمر ، ولفترة طويلة ، بتطبيق نظريات صارمة في أعمالهم. وفي هذه المرحلة من تاريخ علم الآثار، تمكن العلماء من تثبيت المبادئ والأهداف الرئيسة لعلمهم، وحددوا بشكل عام كيفية تحقيقها. يبدأ ذلك من إجراء العمل الميداني، ودراسة المواد الأثرية المكتشفة وتحليلها ، معتمدين في ذلك على ماتقدمه العلوم الاجتماعية والعلمية ذات الصلة. وقد كانت الأداة



المنهجية الأساسية عند الآثاريين هي التصنيف، بطرائقه المختلفة التي بواسطتها يرصد الباحث أوجه الشبه والاختلاف بين المعثورات ، أو الظواهر الثقافية، وذلك بحصر السمات التقنية والشكلية المشتركة بينها. فالسمات المشتركة تؤخذ كمؤشر للإنتماء، إلى مجموعة بشرية ذات خصائص مشتركة. وقد عرف هذا الأمر آنذاك بما أطلق عليه "الثقافةالآثارية". وهي تعني ببساطة ذلك التاريخ الثقافي، الذي اعتمد في بنائه ومعرفته على الأسلوب الآثاري المذكور، لأن الهم الأساسي كان معرفة التاريخ الثقافي، ووضعه في جدول زمني يسمح بمقارنته مع غيره، من المناطق أو الثقافات المجاورة. وكانت المجاميع الأثرية المتشابهة تمثل لهذا الاتجاه منتجات مادية لمجموعة من الناس ، يشترك أفرادها في صفات ثقافية ، ومن ثم توصف بأنها مجموعات إثنية. وكان النموذج النظري، الذي وجد رواجاً في هذه المرحلة، هو مايسمى "بالتاريخية الثقافية"، حيث ينصب الاهتمام على رصد مواصفات الثقافة المعنية ، وتحديد خطها التطوري والمؤثرات التي تتدخل في عمليات التغير والتطور فيه (Trigger 1989:206,448) .

وقد كان للنظرية التطورية، المعروفة في العلوم الطبيعية ، تأثير كبير على هذا الاتجاه ، على الرغم من التعديلات التي أدخلت عليها، عند استصحابها في تفسير تطور الثقافة؛ خاصة أن اهتمامات علماء الآثار في هذه المرحلة كانت تتكيف مع ماهو ذائع من أفكار ومناهج علمية . وكانت هناك اتجاهات أو مدارس ، تركز بصفة رئيسة على أحد الجوانب الاقتصادية أو الفكرية أو البيئية، باعتباره يمثل العنصر الأساس في تطور المجتمعات القديمة (Ibid: 247-259) . ولكن لم توجد حتى الآن نظرية واحدة، تقيد المنحى العلمي الفلسفي في النشاط الآثاري . فالسمة العامة هي أن علم الآثار ظل انتقائياً في الجانب النظري ، إذا يأخذ الباحث مايراه نظرية مناسبة للحالة قيد الدراسة ، ويتخلى عنها في حالة أخرى.

وفي مرحلة التيار الحديث في علم الآثار ، تعارف مؤرخو العلم على إطلاق مسمى "علم الاثار الحديث"، على تلك التحولات المهمة، البالغة التأثير في العمل الاثاري، من ناحية المنهج والنظرية ، التي حدثت في الستينات من القرن الماضي. وقد بدأت هذه الحركة كمراجعة فكرية ونقدية ، لأهداف علم الآثار المعهودة ، والطريقة التي تعود علماء الآثار على اتباعها ، في تحقيق تلك الأهداف. ولايود البحث أن يتحدث عن ذلك التحول المنهجي والنظري بالتفصيل هنا . إذ يكفي أن يُذكر أن الحركة الجديدة توخت الاستفادة من كل منجزات العلوم الطبيعية الحديثة ، من وسائل للتأريخ، ومناهج لتحليل المواد العضوية والبيئية .. الخ. إضافة إلى اعتماد الفلسفة والمنطق في بناء الفرضيات واختبارها ، من أجل الوصول إلى استنتاجات معرفتها مطلوبة من المادة الأثرية.

وقد هدف علم الآثار الحديث، إلى جعل الممارسة الأكاديمية علمية ، قدر ما تعني تلك الكلمة من شروط، في استخدام الفروض النظرية واختبارها بطرق علمية، بهدف الوصول إلى أحكام عامة عن السلوك البشري في الماضي. كذلك بدأ الاهتمام الواضح في البحث الآثاري، بمراحل التغير الثقافي ، والعوامل التي تنظم حركة الثقافة وخط سيرها دون الاكتفاء بالوصف الذي هيمن على كل الأعمال الآثارية السابقة، وقد ظهر هذا التيار في وقت شهد تطورات عميقة في شتى ضروب المعرفة العلمية والإنسانية.

وقد كان هذا الموقف الفكري الجديد ، نتيجة لأسباب كثيرة، منها : التأثير المباشر لاطروحات فيلسوف العلوم توماس كُون ، التي نشرها في ذلك الوقت عن نظرية التطور العلمي [٣] . فهو صاحب فكرة الربط الوثيق بين فلسفة العلم وتاريخه، عن طريق تتبع منهج الدراسة، وقد طرح من خلال مناقشته ، لما أسماه بنية الثورات العلمية، فكرة "النموذج الارشادي" (Paradigm) ، في محاولة منه للتشكيك في نظرية التطور العلمي عن طريق التراكم. فالنموذج الارشادي، ببساطة يعني مجموعة نظريات ومناهج معتمدة لدى المجتمع العلمي



ويشترك فيها كل العلماء . وفي مرحلة سيادة "نموذج ارشادي" ما، يظل التطور العلمي تراكميا، إذ يجري تحسين النظريات القديمة بغيرها، لتواكب الملاحظات العلمية الطارئة، وخلال ما اسماه الثورة العلمية، أي مرحلة التغير ، يلاحظ العلماء أشياء جديدة لم تكن مألوفة لديهم لاتستوعبها النظريات الموجودة، ويحدث تحول جذري يتطور في شكل نموذج مغاير . وتختلف الرؤية من ناحية العلاقات الجديدة التي يكشفها النموذج الفكري الجديد، فهي تعكس تغيرات جذرية ، تُحدث قطيعة بين القديم والجديد . وعندما ينزوي نموذج ، يحل محله نموذج آخر، والنماذج الإرشادية الجديدة "ليست نتيجة منطقية أو تجريبية للنظريات السابقة". ففي كل مرحلة تظهر ثورة علمية ، تكون السيادة فيها لنموذج إرشادي ، يهيئ للعلماء تقليداً متماسكاً لإجراء البحوث العلمية ، ثم يحل محله نموذج آخر في المرحلة التالية ، وهكذا الحال على مدى مسار التطور التاريخي للمعرفة ، وفي كل الأحوال فإن نتائج التحقيق المنهجي نسبية وغير ثابتة ، وأن الأفكار التي تقبل عالمياً هي التي تأخذ صفة النموذج الإرشادي ، وهكذا فالتقدم الحقيقي في العلوم يأتي في مرحلة التحولات الأساسية في النماذج الإرشادية ، واحلال نموذج مكان آخر (كُون ١٩٩٢ : ٤٥-٥٢ ، ١٣٤ ، ٢٢٧-٢٣٠) .

ظهر تأثير أفكار كُون في أدبيات علم الآثار الحديث منذ السبعينات، خاصة تلك التي كانت تدعو إلى إعادة النظر في تاريخ علم الآثار، وفي النظرية التاريخية الثقافية ، التي تشكل المحور الأساس في الدراسات الآثارية ، كذلك أثرت في الدعوة الى تبني مناهج جديدة في الاستنتاج ، والتركيز على قضايا حركة الثقافة وديناميتها ، ومن جهة أخرى أوضحت القصور الذي أصاب توجهات البحث الاثاري نتيجة ابتعاده عن مناهج العلوم التجريبية وفقدانه لنظرية متماسكة توجه الأبحاث فيه ويقول ديفيد كلارك ، أحد أعلام التيار الحديث في علم الآثار ، أن علم الآثار ظل حتى ظهور أفكار توماس كون ، "منهجاً امبيريقياً (تطبيقياً) غير ممنهج " (Trigger 1989: 50) .

تعرضت أطروحة كون لنقد ومراجعة من قبل فلاسفة العلوم، ولكن بعض الاثاريين المحدثين رأوا أن المراحل التي مرّ من خلالها علم الآثار ومافيها من المناهج والنظريات المتماسكة يؤهلها لأن تصبح نموذجاً إرشادياً . وعلى الجانب الآخر ظل عدد كبير من الآثاريين على اعتقادهم بأن الحال في علم الآثار لا يماثل العلوم الطبيعية التي وضع كون نموذجه عليها. ويعتقد هؤلاء أن التطور في المنهج والنظرية في علم الآثار ، كان تراكمياً ومتدرجاً عبر فترة زمنية طويلة ، وليس فيه ما يوحي بثورة أو انتقال مفاجئ في موجهات البحث الآثاري. إن أقرب احتمال لاطروحة كون ومناسبتها في علم الآثار، هو عندما نتبين أن التفسير الآثاري لم يتطور في اتجاه أحادي ، وإنما حدث نتيجة لمؤثرات من معارف شتى . وهكذا فإن النماذج الإرشادية المتغيرة هذه، قد تنبه الباحثين إلى مجالات وآفاق بحثية لم تكن موضع اهتمامهم.

ومهما يكن من أمر تأثير أطروحة كُون في علم الآثار الحديث، فإن التأثير الذي بدأ كحركة نقدية للمدرسة التاريخية - الثقافية ومناهجها، تفجر في سيل من فروع المدارس الفكرية خلال عقدين فقط من الزمان لكل واحد منها توجهاته النظرية والمنهجية، التي انتهت الى محورية شديدة في البحث الآثاري.

وبعد فترة وجيزة تعرض التيار العلمي الجديد، الذي يسعى إلى تفسير التغير الثقافي من خلال رصد حركة الثقافة وإصدار أحكام أو قوانين عامة عنها، إلى نقد شديد ، وكان النقد منصباً على أن هذا التيار يركز كثيراً على الجوانب المادية في حياة الإنسان، وينظر إلى الثقافة من خلال التكيف على البيئة، وذلك من منظور النظرية الوظيفية، التي عرفت في الانثروبولوجيا منذ الثلاثينات في القرن الماضي ، وقد كان دعاة التيار الحديث أكثر تفاؤلاً في تقديراتهم، لما يمكن أن يتحقق من الأهداف التي طرحوها، إذ إن بعضها لايضع في الاعتبار إشكالات المادة الأثرية،

ومايترتب على ذلك من تطبيقات للمناهج الجديدة، ومهما يكن من أمر فقد توفرت لعلم الآثار لغة خاصة ، ذات عبارات دقيقة تقترب من لغة العلوم الطبيعية. ومن الفكر الذي وجد رواجاً بعد ذلك البنيوية ، ثم الوظيفية -البنيوية، الماركسية المحدثة ، والنظرية النقدية. وأصبحنا الآن نقرأ عن علم الآثار الجنساني (Gender Archaeology)، وعلم الآثار المعرفي (Cognitive Archaeology) ، ضمن مسميات أخرى. وقد تراجع أخيراً بعض الفكر النظري في علم الآثار إلى الدعوة إلى المدرسة "التاريخانية المثالية" التي تركز على الظرف الاجتماعي الذي تكونت فيه الظاهرة الثقافية قيد الدراسة Renfrew and Bahn) (405-434 :1991 . وفي ضوء هذه المعلومات الموجزة عن الوضع المنهجي والنظري في علم الآثار في الوقت الحاضر، ننظر إلى دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل ، وذلك لأمرين : أولهما ، لنرى ما إذا كان في هذه الدراسات مراحل محددة المعالم يمكن تمييزها على أسس توجهات نظرية ومنهجية ، وثانيهما لنرى مدى تأثرها بالتيارات الحديثة في علم الآثار آنفة الذكر.

دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل :

تعّرف العلماء على وجود الإنسان، خلال عصور ماقبل التاريخ في وادي النيل ، منذ القرن التاسع عشر ، ولكن جمع المواد الأثرية الدالة عليه ، من مواقع هذه الفترة ، لم يبدأ بصورة فعلية إلا مطلع القرن الماضي ، ومنذ ذلك الوقت مر تاريخ البحث الآثاري عن هذه الفترة بمنعطفات، فتارة تنشط الأبحاث، وتنقطع تارة أخرى ، حتى نشطت بصفة شبه دائمة، بعد حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩- ١٩٦٥م) . كما لاتوجد دراسة مفصلة عن طبيعة أبحاث ماقبل التاريخ ومناهجها ، إلا مايرد عنها في شكل موجز ومقتضب، ضمن مقدمات التقارير والمؤلفات ، التي تحوي نتائج المسح والتنقيب في حقب ما قبل التاريخ ، في مصر أو السودان. وقد كتب آدمز مقالا ناقش فيه تاريخ البحث الآثاري في السودان وذكر أنه يمكن تقسيمه إلى أربع مراحل متعاقبة ، تمثل كل واحدة منها نموذجاً إرشادياً متوافقاً مع الوصف ، الذي طرحه كُون من قبل. ويرى آدمز أن هذه النماذج الإرشادية في البحث، تعكس متغيرات الأحوال السياسية، خلال فترة الحكم الأجنبي وما بعده. وفي الوقت نفسه حدد شكلها التقدم في المنهجيات والتخصص المهني، الذي حدث في علم الآثار، هذا إضافة الى التغيير الذي طرأ في نظرة الغرب إلى أفريقيا وشعوبها من ناحية فلسفية. وكان أول هذه النماذج التي اقترحها آدمز، هو الذي يحمل الأفكار التي سادت في القرن التاسع عشر، وسماه نموذج "القطف"، أو جمع الآثار دون موجهات علمية تذكر. والثاني نموذج ماسماه بمرحلة "الاستعمارية المستنيرة" وهي الفترة التي شهدت ميلاد البحوث حول أصول الحضارة المصرية القديمة في شمال السودان . والثالث نموذجْ ما بعد الاستعمار، والرابع هو النموذج الوطني (Adams 1981)، ومن الملاحظات التي تؤخذ على هذا التقسيم ، أنه لم يشتمل في مادته على الأبحاث التي أجريت عن فترة ماقبل التاريخ ، إذ حصره المؤلف في الآثار التاريخية. ومن جانب آخر، لم يبين بصورة واضحة الفروق الفكرية أو المنهجية بين المرحلتين الثالثة والرابعة. كذلك يمكن الإشارة الى أن النظرية التاريخية الثقافية، كانت بارزة في معظم الأعمال الرئيسية، التي تمت في الدراسات الآثارية في السودان على اختلاف مراحلها ، وما خرج عليها يعد في حكم النادر. وسيتضح عند مناقشتنا لأبحاث ماقبل التاريخ في الصفحات التالية صعوبة تطبيق فكرة النموذج النظري الإرشادي الواحد الذي تنتظم فيه معظم الدراسات.

بعد مراجعة نتائج دراسات ماقبل التاريخ في السودان ومصر تبين أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل رئيسة ، تمثل كل واحدة منها عدداً من الاتجاهات المنهجية والنظرية. كذلك، يلاحظ أن النظرية السائدة في أي من هذه المراحل الثلاث، لم تختف مرة واحدة ، بدليل التداخل النظري بين المراحل، كما أن كثيراً من الأفكار الحديثة السائدة في الأبحاث



العالمية اليوم، لم تنعكس بطريقة مكتملة في المرحلة الثالثة، كما سيأتي ذكره. ويرتكز التقسيم الثلاثي المقترح على أساس طبيعة المناهج الميدانية ، والطرق المتبعة في دراسة المعثورات، والآراء التي تبناها العلماء في تفسيرهم لتطور ثقافات العصور الحجرية في المنطقة ، في إطار ما هو معروف في الدراسات العالمية المماثلة. فالمرحلة الأولى تغطي الفترة منذ بداية الأعمال الميدانية الفعلية عند بداية القرن الماضي حتي العام ١٩٦٠م ، حيث تبدأ المرحلة الثانية مع حملة إنقاذ آثار النوبة ، التي تعد نقطة مفارقة في تاريخ البحث الآثاري عموماً في المنطقة. أما المرحلة الثالثة فهي التي شهدت الأعمال، التي أعقبت تلك الحملة من العام ١٩٧٠ م تقريباً ، حتى الآن . ومن أجل تحديد ملامح هذ التقسيم نتناول كل مرحلة على حدة .

المرحلة الأولى :

على الرغم من أن البحث عن مواقع ماقبل التاريخ، لم يبدأ بصورة علمية منتظمة إلا في العقدين الأولين من القرن الماضي، إلا أن وجود المعثورات الأثرية من هذه الفترة، تم تسجيله بواسطة عدد من الرحالة المستكشفين في مصر، منذ أواخر القرن التاسع عشر. ومن الملاحظ أن الاهتمام بهذه الفترة كان مبكراً في مصر، بينما أهمل بعد ذلك عند بداية الحرب العالمية الثانية. ويعزى ذلك إلى سببين رئيسين: أولهما ، اعتقاد كثير من الباحثين بعدم أهمية المنطقة حضارياً في تلك الفترة بسبب تخلفها عن مسيرة التطور، الذي حدث في مناطق أخرى من العالم ، وثانيهما ، التركيز والشهرة اللتان اكتسبتهما مصر، باكتشاف الحضارة المصرية العريقة، بفنونها الزاهية ، وعمارتها ، ولغتها القديمة ، وهي الحضارة التي امتد إشعاعها بعيداً في أرجاء العالم القديم . لقد كان العمل الاثاري ، الذي أداره الغربيون في ذلك الوقت ، موجهاً بصفة رئيسة نحو البحث في أصل الحضارة الإنسانية، وخصائصها وكيفية انتشارها من منابعها الأولى في مصر . كما رأى كثير منهم ، إلى بقية أنحاء العالم.

وفي مصر تعرف الباحثون على وجود الإنسان ، أولاً في الصحراء الغربية، من خلال رحلات المستكشفين الأجانب ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وفي أوائل القرن الماضي ، وصف شوينفيرث وكورلي وستيرت ، أدوات من العصر الحجري القديم ، وكذلك فعل الشئ نفسه بوفير-لابيني، من خلال أعماله في العباسية بالقرب من القاهرة ، ولم تكن هذه الاكتشافات منتظمة أو ذات أهداف محددة (Wendorf and schild 1976 : XV) . ويأتي في مقدمة الأعمال المهمة من التنقيب والبحث ، في مواقع ماقبل التاريخ ، ما قام به كاتون طوسون وغاردنر في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، إذ تمكنا من اكتشاف حضارة ماقبل الأسرات ، متمثلة في البداري . ثم أعمالهما الرائدة في الفيوم ، عندما حددا تسلسل الأدوار الثقافية هناك ، من بدايتها حتى ظهور مجتمعات إنتاج القوت، في العصر الحجري الحديث . وبعد ذلك تأتي أبحاثهما في واحة الخارجة (١٩٣٠- ١٩٣٢ م) ، حيث وصفت كاتون طومسون تسلسل أدوار العصر الحجري القديم ، بدءاً من الأشولية وما أسمته الأشولي -اللفالوازي . فقد كان هذا أحد الأعمال الكاملة المبكرة في الصحراء الغربية في مصر .

ونالت هذه المنطقة حظها من قبل في زيارات الجيولوجيين والآثاريين والمستكشفين ، وكذلك اكتشف حسين بك في ١٩٢٤ م الرسومات الصخرية في منطقة العوينات ، وكذلك باقنولد (Bagnold)، وميرز (Myers) . ويأتي في صدر قائمة الأعمال الميدانية المهمة ، في تاريخ البحث الآثاري في مصر أيضاً، ما قام به فينارد (Vignard)، في كوم امبو في أواسط مصر ، حيث اكتشف ماأطلق عليه "حضارة السبيل" المشهورة، التي نسبها إلى العصر الحجري الأعلى ، ووصف أدواتها بأنها خليط من تقنيات العصر الحجري القديم الأعلى، والصناعة الموستيرية ،التي ظلت عالقة في المنطقة حتى وقت متأخر ، مما يوحي بأن المنطقة



كانت متأخرة حضارياً، ولم تشهد الابتكارات الحضارية، التي عرفتها مناطق اخرى. وقد تردد مثل هذا الرأى في كتابات كاتون طومسون ، عندما ذكرت -مثلاً- أن إقليم شمال شرق أفريقيا كان منغلقاً ومكتفياً ذاتياً في فترة العصور الحجرية. ويبدو كذلك أن التطور الحضاري كان بطيئاً ، وبعيداً عن التيارات الحضارية الرئيسية، التي عرفتها منطقة الشرق الأدنى وأوروبا (Caton-Thompson 1946: 57-58) .

وقد حظيت منطقة النوبة بقدر من الاهتمام في مجال البحث الآثاري ، خلال هذه المرحلة المبكرة من العمل الميداني ، عندما تقرر بناء خزان أسوان ، وتعليته فيما بعد. وقد أجري مسحان أثريان (١٩٠٧-١٩١١ و ١٩٢٩-١٩٣٣) في منطقة النوبة السودانية ، ولم يذكر فيهما شئ عن وجود مواقع تعود للعصر الحجري القديم ، بل ذكر في تقاريرها أن الاستيطان البشري بدأ بوصول مجموعات سكانية من خارج المنطقة ، أعطيت حضاراتها أسماء بالحروف الأبجدية وبدا واضحاً أن الاهتمام الأكبر كان من نصيب حفر المقابر ووصف المعابد، والمباني الشاخصة ، التي نُسبت للحضارة الفرعونية ، بسبب اعتقاد الباحثين أن منطقة النوبة تمثل امتداداً حضارياً لمصر ، ولهذا يجب وضع آثارها ضمن الهيكل التاريخي المعروف لديهم سلفاً (Adams 1963) .

وأما الإشارة الواضحة لوجود آثار من العصور الحجرية ، فقد وردت فى أعمال ساندفورد وأركل ، التي قاما بها في النوبة المصرية ، عندما حاولا -في الثلاثينات - دراسة جيولوجيا المنطقة، وترسبات فيضانات نهر النيل القديمة. وقد وصفا مجاميع أدوات حجرية من نوع الأشولية والموستيرية. وبعد ذلك أجريا مسحاً مماثلاً في النوبة السودانية ، حتى سمنة جنوباً. وبناء على تلك المعلومات وصفا تسلسل أدوار العصر الحجري القديم ، وخلصا إلى أن الصناعة الاشولية لا توجد جنوب وادي حلفا ، كما أن الصناعة الموستيرية استمرت في المنطقة لوقت طويل بعد اختفائها في المناطق المجاورة، وبهذا يدعمان ماذكرته كاتون طومسون من قبل ، بأن التطور الثقافي خلال العصر الحجري القديم ، كان هامشياً ومحافظاً (Sandford and Arkell 1933: 35) .

أتيح لأنطوني آركل ، أحد الإداريين البريطانيين في السودان ، الذي أصبح مديراً للآثار في ١٩٣٨م، أن يجمع أدوات حجرية من نوع الأشولية من السطح ، في كثير من المواقع المتفرقة في البلاد ، وبهذا يكون قد أوضح وجود الإنسان المبكر إلى الجنوب من الخرطوم ، على غير ماكان يعتقد. ومن أهم اكتشافاته موقع خور أبو عنجة الأشولي ، الذي نشر تقريراً عنه مع تلك المكتشفات في أول كتاب خاص بالعصر الحجري القديم في السودان عام ١٩٤٩م . وعلى الرغم من أن هذا العمل كان محدوداً إلا أنه دحض الرأي القائل بخلو المنطقة من وجود الإنسان في تلك الفترة (Arkell 1975) . ومن أهم أعمال آركل، ذات الأثر الكبير في دراسات ماقبل التاريخ في السودان ووادي النيل عموماً، تنقيبه في موقعي الخرطوم القديمة والشهيناب التي تقع نحو ٥٠٠ كم إلى الشمال من أم درمان .

وصف آركل الخرطوم القديمة بأنها مستوطنة يعود تاريخها للألف الثامن قبل الميلاد، وكانت مستوطنة شبه دائمة ، اعتمد أصحابها على صيد الحيوانات البرية والأسماك وصنعوا أدوات حجرية متميزة ، وكذلك الخطاطيف العظيمة ، التي عرفت بها هذه الحضارة . كما أنهم صنعوا الفخار المزين ، بالخطوط المتصلة والمموجة، وبأخرى متقطعة مموجة ، أو متعرجة. ولم يتمكن هؤلاء الصيادين من ممارسة الزراعة، أو استئناس الحيوان (Arkell 1949). وفي الموقع الآخر (الشهيناب) ، اعتمد السكان على الصيد البري والمائي ، واستأنسوا الأغنام والماعز والأبقار ، ولم يوجد دليل على الزراعة وتطورت صناعة الفخار حيث عرفوا الصقل والزخرفة بأشكال أخرى متنوعة واعتقد آركل أن الشهيناب (الألف الرابع ق.م) كانت تطوراً طبيعياً من حضارة الخرطوم القديمة أي تطوراً من العصر الحجري الوسيط ، الي العصر الحجري الحديث. وقد وجد حلقة الوصل بين الموقعين في موقع آخر



(القوز)، في منطقة الخرطوم (Arkell 1953) . ويعتقد آركل أن حضارة الشهيناب ظلت محصورة في وادي النيل، بينما طور نظريته المعروفة بأن الخرطوم القديمة كانت هي المركز الذي ظهر فيه الفخار أولاً في أفريقيا، ومن ثم انتشر بزخارفه المميزة في منطقة واسعة، تمتد شمالاً حتى الفيوم، وإلى الصحراء الكبرى في الغرب. وقد ظلت أفكاره متداولة حتى اليوم، بين مؤيد ومعارض. ومهما يكن من أمر فإن آركل استطاع أن يضع منطقة النيل الأوسط في خارطة أبحاث ماقبل التاريخ، وجذب إليها أنظار العلماء، وظلت أفكاره رائجة لوقت طويل بعد ذلك. ومن المناسب هنا الإشارة، إلى أن وجهة نظر آركل تمثل فعلاً أحد النماذج الفكرية السائدة في أواسط القرن الماضي في علم الآثار، وهي فكرة الانتشارية. فهناك في الخرطوم القديمة، حدث تطور ثقافي محلي، أصبحت بموجبه المنطقة مركز إشعاع حضاري، يبث مؤثراته بوسائط غير محددة على وجه اليقين، إلى أماكن بعيدة، وتتشكل نتيجة لهذا الانتشار منطقة ثقافية يمكن تحديد معالمها جغرافياً. كذلك تجدر الإشارة إلى أن آركل استخدم كل ما كان متاحاً في وقته من منهجية ، لعمل تنقيبات ميدانية منظمة، جمع خلالها المواد العضوية والمعثورات والظواهر، التي استطاع أن يكّون من خلالها صورة مناسبة عن حياة أولئك الصيادين في منطقة الخرطوم .

إذا أراد المرء أن يصف حالة البحث حول فترة ماقبل التاريخ في السودان ومصر خلال هذه المرحلة، فيمكنه القول :

١- لم تكن المنطقة المذكورة في مقدمة المناطق في العالم القديم ، التي حظيت كثيراً باهتمام الاثاريين ، وربما يعود ذلك الى انشغالهم بالحضارة المصرية القديمة في العصور التاريخية، وانكباب العلماء، من مختلف مراكز الأبحاث العالمية على دراسة آثارها وفنونها الرائعة.

٢- لم تكن هناك أبحاث خطط لها، ماعدا حالات قليلة. فالأعمال الميدانية كانت تتحكم فيها الصدفة. فعندما تقرر بناء خزان أسوان - مثلاً - أصبح العمل الآثاري إنقاذياً في المقام الأول ومن جانب آخر ،كانت بعض مواقع ماقبل التاريخ، يسجلها المستكشفون ولايكتبون عنها وصفاً كاملاً. وهكذا ظلت دراسات ماقبل التاريخ بعيدة عن الاهتمام .

٣- يلاحظ أن معظم المواد الأثرية، التي تم تسجيلها أود دراستها كانت ملتقطات سطحية من الأدوات الحجرية، مما جعل الباحثين يركزون على تصنيفها وترتيبها، بهدف معرفة الأدوار الثقافية التي تمثلها. وفي تحديدهم لمعالم الأدوار الثقافية في ماقبل التاريخ ، اعتمدوا على أنواع معينة من الأدوات الحجرية عدت نموذجية، وهو الشئ نفسه الذي فعله علماء ما قبل التاريخ في أوروبا. ومن ثم استخدموا المصطلحات نفسها المعروفة في أوروبا، ولم يلتفت أحد في ذلك الوقت، إلى احتمال عدم مناسبة بعضها للمواد المكتشفة في وادي النيل. كذلك كانت المقارنات محصورة بما عُرف في أوروبا والشرق الأدنى، ونادراً مايذكر الإطار الجغرافي لوادي النيل في أفريقيا، عند إجراء هذه المقارنات.

المرحلة الثانية :

على الرغم من أن العمل الميداني، في شكله المحدود ذاك، لم ينقطع، إلا أن بداية حملة إنقاذ آثار النوبة في عام ١٩٦٠م، تمثل نقطة تحول أساسي في تاريخ العمل الآثاري في المنطقة، بصفة عامة، وماقبل التاريخ بصفة خاصة. فخلال هذه الفترة استمرت عمليات المسح والتنقيب، في منطقة محصورة على ضفتي النهر في منطقة النوبة، بين الشلال الأول والثاني ، لمدة خمس سنوات. واستمرت أعمال التحليل والدراسة والنشر بعد ذلك، حتى عام ١٩٧٠م تقريباً . وقد دخل إلى منطقة النوبة مالايقل عن أربعين بعثة تنقيب أجنبية، بعد النداء الذي وجهته الأمم المتحدة، وحكومتا مصر والسودان ، لإنقاذ آثار النوبة. وكان يقصد بها آنذاك، المعابد والقصور والكنائس وكل



الآثار الشاخصة في المستوطنات القديمة، ولم تكن آثار ماقبل التاريخ، ضمن الخطة الأصلية لمشروع البحث . ولكنها اعتمدت بعد بداية الحملة فعلياً. وقبل التعرض للمنهجية، التي اتبعتها الفرق البحثية في مواقع ماقبل التاريخ، يجدر أن نقرر أن نتائج تلك الأعمال الميدانية، التي نشرت تباعاً بعد عام ١٩٦٥م كشفت عن معلومات جديدة ومثيرة، عن الأدوار الثقافية في العصور الحجرية في تلك المنطقة، من وادي النيل. فقد اتضح من الوهلة الأولى ، خصوصيتها وثراء التجربة الإنسانية فيها. فقد كشفت أعمال البحث والتنقيب، عن العديد من التقاليد الثقافية المتميزة، التي تطورت محلياً، وأخرى تأثرت بعوامل محلية وخارجية، من شمال أفريقيا ومن شمال وجنوب الوادي، وقد كانت المنطقة خلال الجزء الأخير من البلايستوسين، تعيش نمواً ثقافياً مهماً وحيوياً خلافاً لما كان يظن أنها تعانيه من ركود وعزلة ثقافية. (Wendorf 1968 a: Introduction) .

وقد عملت تلك البعثات في المسح والتنقيب في آثار المنطقة، وعدد قليل منها تخصص في مواقع ماقبل التاريخ، في مصر والسودان. وفي هذه المرحلة كان العمل محصوراً في المنطقة، التي ستغمرها مياه السد العالي وماجاورها. ففي شمال السودان انحصر البحث في منطقة مساحتها ستون كيلو متراً فقط، حول مدينة وادي حلفا. والفضل في معظم، بل في أهم ماحققته تلك الفرق العلمية من اكتشافات، يعود للبعثة الأمريكية المتحدة، المكونة من عدة باحثين ينتمون إلى جامعات من أقطار مختلفة، بقيادة فرد وندورف، التي نشرت أعمالها بصورة غير مسبوقة في عدد من المجلدات والأبحاث المتفرقة. حدث هذا على الرغم من الخلفيات الأكاديمية المتباينة للباحثين، الذين يجتمعون لأول مرة في منطقة واحدة محصورة، لم يكن لمعظمهم - بما فيهم رئيس الفريق نفسه - خبرة سابقة بنوع مواقعها وطبيعتها ومشكلاتها. ولهذا يلاحظ بعض الاضطراب في المسميات والمصطلحات المستحدثة، في وسائل تصنيف ووصف المعثورات، الأمر الذي أثر سلباً في ترتيب المراحل الثقافية خلال العصور الحجرية بل في تحديد معالمها بشكل دقيق واضح.

وقد ساهم التطبيق الصارم لأنظمة التصنيف الآثاري الأوروبية، في وجود مثل هذه الاشكاليات. فعلى سبيل المثال، استعملت قائمة الأدوات، التى ابتكرها فرانسوا بورد، في تصنيف الصناعات الموستيرية النوبية، ولكنها وجدت غير مناسبة لتطبيقها في تصنيف أدوات ماسمي بصناعة خور موسى . وقد كان من الممكن إضافتها للمجموعة الموستيرية، إذا استخدمت منذ البداية طريقة أخرى، كما اتضح فيما بعد عند إعادة دراسة هذه المادة (Elamin 1981: 1- 13) . ومن جهة أخرى، فإن الطبيعة الإنقاذية جعلت تلك الأعمال الميدانية جزئية، كما أن بعضها اعتمد على مواقع أثرية منتقاة. وربما يضاف إلى ذلك، أن العمل نفسه لم يكن من النوع الذى اقتضته قضايا أثرية محددة ، أو فرضيات معينة، حول تطور ثقافات العصور الحجرية في المنطقة، كما حدث في بعض الدراسات الأخرى في السودان، عقب انتهاء الحملة.

وعلى الرغم مما ذكر، تمكنت البعثة الأمريكية المتحدة من توثيق أكثر من عشرين تقليداً في صناعة الأدوات الحجرية. وبناء على ما فيها من خصائص تقنية، ونوعية مشتركة وعلاقات زمانية ومكانية فقد عدت كل واحدة منها ذات طابع خاص متميز وقد رتبت في تسلسل زمني، يمتد من الدور الأشولي حتى نهاية العصر الحجري الحديث. وقد كانت أعمال هذه البعثة متميزة بشموليتها، من حيث إجراء البحوث الجيولوجية، والبيئية ذات الصلة، ثم جمع كل ماهو متاح من معلومات، تفيد في التعرف على أنماط الاستيطان البشري القديم، والكثافة السكانية وأنماط الاقتصاد المعيشي. وقد كانت المعلومات حول هذه الأمور قليلة في كثير من الحالات، نسبة لطبيعة المواقع نفسها، خاصة أنها فقدت كل ماكان فيها من مواد عضوية، بفعل عوامل الطبيعة .

ومن ناحية منهجية، اعتمدت الدراسة على



الاعتقاد بأن كل المعثورات، وفي معظم الحالات، الأدوات الحجرية التي توجد في مكان واحد وفيها ما يوحدها من الخصائص، تسمى مجموعة (Assem-blage) ثم توضع -بعد ذلك- المجاميع التي تشترك في خصائص نوعية وتقنية بنسبة كبيرة في وحدات تسمى صناعة (Industry) ويعتقد الباحثون أن كل وحدة أوصناعة، تمثل وحدة ثقافية يمكن نسبتها لثقافة مجموعة سكانية عاشت في المنطقة في الزمن المعين. وعلى هذا الأساس ترتب الصناعات، اعتماداً على أسس تصنيف المعثورات بالطرق المعهودة في دراسات ماقبل التاريخ عالمياً، كما ذكر آنفاً. ولكن تجربة البعثة الأمريكية نفسها أوضحت أن هناك بعض المجاميع لايمكن وضعها ضمن أي صناعة تم تعريفها، ولهذا جمعت في قائمة أطلق عليها اسم متفرقات "Miscellaneous". وتبعاً لهذا النموذج، تعد كل صناعة ممثلة لأنشطة مجموعة من الناس، يشتركون في ثقافة مميزة وهذه الصناعات الحجرية تمثل "حقائق ثقافية وليست نتيجة لنشاط وظيفي متخصص أو تكيف بيئي موسمي أو أنها تجمعت صدفة نتيجة لأسلوب الجمع من الميدان أوالتصنيف". والمبدأ العام في هذا النموذج أنه، إذا كان الاختلاف ضئيلاً بين المجاميع الأثرية المتعاقبة، فإن ذلك يعد تطوراً واستمرارية، وعندما يكون الاختلاف كبيراً فيفسر ذلك بدخول مجموعات عرقية جديدة للمنطقة، ذات ثقافة مختلفة. وفي حالة منطقة النوبة، عندما تكون الصناعات متزامنة ومختلفة، فإنها تمثل تعايشاً بين مجموعات مختلفة ثقافياً وعرقياً في إقليم واحد (Wendorf 1968b: 1041).

إن هذا النموذج الفكري، في تفسير التنوع في المخلفات المادية لمجموعات ما قبل التاريخ، يذكّر مباشرة بنموذج "الثقافة الأثارية"، التي عرفها ووضع أسس طرائق تحديدها، غوردون شايلد، وغيره من رواد علم الآثار في الأربعينات من القرن الماضي. فهذه الفكرة هي التي بدأ بنقدها أصحاب مدرسة التيار الحديث في علم الآثار، عندما بينوا عيوب التوجه التاريخي - الثقافي، الذي يقوم على أسس التصنيف الشكلي للأدوات الحجرية، وهو في ذلك يعتمد على النسب الإحصائية بين مجاميعها، ثم ينظر إليها في حلقة متصلة كما لو أنها تتناسل، بينما هي في الواقع من فعل الإنسان بطبيعة الحال (Binford 1966). ومن دون مناقشة الأساس النظري، الذي اعتمدت عليه مثل هذه الدراسات، فهناك ثغرات إجرائية في المنهج يمكن الإشارة إليها فمن ذلك مثلاً، أن الاختلافات المذكورة بين المجاميع، تقوم أساساً على فروقات إحصائية في نسب أنواع الأدوات الحجرية. كما أن تصنيف الأدوات ونسبها، يتوقف -هو الآخر- على عينة الدراسة ومدى تمثيلها للكل. وهناك اختلاف نتائج التصنيف المدني الناجم عن تطبيقات لأشخاص مختلفين. فالصناعات الموستيرية في منطقة النوبة السودانية، تم تعريفها من دراسة مجاميع أدوات حجرية وجدت على السطح، في أحد عشر موقعاً. وقد صنفت الأدوات على أساس قائمة بورد لتصنيف أدوات العصر الحجري القديم الأوسط. ولكن حجم العينة في بعض الحالات كان غير مناسب لإجراء مقارنات إحصائية بين تلك المجاميع. وقد قسمت الصناعات الموستيرية إلى أربعة أنواع، وذكر أن بعضها يماثل الصناعات الموستيرية في غرب أوروبا تقنية ونوعاً، وهو أمر خاضع للتأكيد (Marks 1968:292). ومهما قيل من ملاحظات عن أعمال هذه البعثات، خلال حملة إنقاذ آثار النوبة، فإن الإيجابيات تفوق السلبيات. أما عن أبحاث ماقبل التاريخ، فيمكن القول أن النتائج التي حصلت عليها بعثات التنقيب، فتحت الباب على مصراعيه في مصر والسودان لدراسات جديدة، بتوجهات وأهداف مختلفة، كان لها نتائجها العلمية المهمة (كما سيأتي ذكره في الفقرة التالية).

إن الأعمال الميدانية، ودراسة ما عثر عليه من مواد أثرية، في هذه المرحلة من أبحاث ماقبل التاريخ في منطقة النوبة وخارجها، يمكن تلخيص أهم ملامحها المنهجية في الآتي